أول نوفمبر سنة ١٩٣٢
رجب سنة ١٣٥١

المعرفة

الجزء السابع
السنة الثانية

مجلة — شهرية — جامعة
لصاحبها وناشرها ومحررها المسئول
عبد العزيز الإسلامبولي

المجلد الرابع — شعارها: اعرف نفسك بنفسك — العدد ١٩

شـــــــــــــــــوقى ....

بقلم صاحب « المعرفة »

خرجت العاصفة عن صمتها البالغ ، وأخذت فى غمرات الليل البهيم تزمجر بزأداتها الداوية ، بينما كان النائمون موزعة أحلامهم فى جنبات الكون ، وبينما كانوا يفتكرون فى كل شىء إلا فى هذه النازلة ، التى كانت آخر ما يترقبون من ضربات المعول الذى ينقض كل يوم لبنة من صرح الحياة المشيد .

وتطلع الناس إلى ضوء الصباح ، فإذا هو باهت كئيب ، وتلمسوا فى قلوبهم مواضع الضيق ، فإذا هى حافلة به . لا يترك ثلمة يتردد منها نفس . أو يسبح فى مجراها الدم الثوار .

وحق لهم أن يتساءلوا : أى حدث هائل ، هذا الذى أصار الضوء الباهر قطعة من الليل القاتم ، وأصار القلوب الرحيبة — من ضيقها — كأخوص القطاة ؟

هنا : أجاب الناعى بصوته المشئوم ، إن « شوقى » قد أسلم روحه إلى الله !

وهنا تحركت الشفاه بتمتمة مخنوقة . فيها كل ما أوحت به النازلة الفادحة من حزن عميق !

الرجل الحائر

ولكن : هل مات « شوق » حقاً ؟ اللهم إن « شوق » لم يمت : فما خلقت هذه الحياة كلها لتموت ، ولا ليأخذ بها الموت إلى موضع الفناء . وما كانت رسالة النابهين الدائمين إلا عجلة خلودهم على الأجيال : وليست رسالة « شوق » التى أداها إلى العالم ، وأنفق فى سبيلها جهد الجاهدين ، إلا أصدق رسالة ينال عليها بأخلد الخلد . فهو إذن حى فى كل قلب ، وفى كل لب ، وفى كل وجدان ، وعلى كل لسان ، وفى كل جيل ، وفى كل بلد ينطق الضاد .

طفولة نابغة

كانت طفولة « شوق » تشبه فى تكوينها قصيدة من قصائده الرائعة : فقد درج على سرحة النعمة ، ومشى إلى الحياة بين الطنف والزخرف ، واستقبلته الدنيا بالوجه المشرق والبسمة الضاحكة ، ومن حق الذى ولد « بباب اسماعيل » أن تكون هناءة العيش ميزته الكبرى ، وأن تكون عصارته خلاصة الطوية الطيبة ، والروح السمح ، والنفس التى لا تلبس مسوح الغموض ، والعقل الذى لا يرتدى إهاب الغباء ... وكأنما شاءت الأقدار أن تمهد لهذا الصغير سبيل العرفان بمستقبله الباسم ، فجعلت عينيه دائمتى التصويب بنظراتهما إلى السماء ... وجعلت منه وجهاً دائم التطلع إلى ما فوق الأرض ، حتى تنبه إليه « اسماعيل » العظيم ، فأراد أن يعود بعينيه إلى الوجهة المألوفة ، ولم يجد الطب سبيله إلى تحقيق ذلك هيناً سهلا : وإنما وجد « الذهب » وحده سبيل التوفيق ، فقد كان « اسماعيل » يجلس « شوق » الصبى إلى جواره ، ثم يمسك قطع الذهب ينثرها على الأرض نثراً ، وكان « شوق » — بحكم ما فى الذهب من جاذبية — يحول نظره إلى أديم الحجرة حتى يشهد منظر الذهب فى استوائه عليها ، ولقد أفلحت الحيلة ، فعادت عيناه إلى الطبيعة المألوفة . ولكنه اكتسب من هذه الحيلة ميزة الزهد فى كل شىء من هذه الأشياء التى تدعو إلى التناحر والخصام :

لسان نهضتين

والحق أن « شوق » لم يكن إلا لسان نهضتين : النهضة العربية بما فيها من دعوة حارة إلى العروبة وتمجيد صادق لأبنائها ، والنهضة المصرية بما فيها من نشدان للحرية ، وهتاف بمجد الوطن ، ودعاء بحياته حياة مستقرة بين الشعوب .

ولقد كان هذا اللسان الشوقى رائع التعبير عن حاجات النهضتين ، صادق السعى فى حثهما على المضى والتوجيه بهما وجهة الخير والانتاج .

وإن قصائده السامية التي كان يخلد بها الأحداث التي تطرأ على العرب ، والأشخاص الذين يذودون عن العروبة، لدليل مقنع على صدق ما ذهبنا إليه.

وإن القصائد الرائعة التي كان يتغنى بها وراء الحوادث المصرية، وخلف الشخصيات المصرية ، لحجة صادقة تحقق لك أن الرجل لم يكن خياله إلا لوحة تركن إليها كل صورة من صور الحياة في مصر .

داعية إسلامي

ومن أظهر ميزات « شوقي » .. بل لعلها الميزة الكبرى ـ أنه كان رجلا إسلامياً يوجه نفسه إلى ما يذيع من فضائل الإسلام ، ويزيد في حقائقه السامية توضيحاً وتنويهاً .

فلقد كان ـ رحمه الله ـ من أولئك البناة الذين شيدوا في قلوب الجماهير الشرقية صرحاً رفيعاً من حب الإسلام وتقدير الرسول ، وهذه القصائد التي كان ينظمها في مدح النبي صلى الله عليه وسلم ، هل استطاع واحد من شعراء الإسلام أن ينتج خيراً منها ، وأن يكون في إنتاجه متمشياً مع هذا السياق الذي اتجهه الفقيد العظيم : من توفير أسباب الطلاوة ، والسحر ، والفتنة ، والجمال ، والروعة لكل ما يقول . . . ؟ اللهم لا .

وإني لأذكر في مناسبة الحديث عن روح الفقيد الإسلامية ، أنه تفضل على «المعرفة» في بداءة سنتها الثانية ببضعة من جواهره النادرة التي جمعها في كتابه « أسواق الذهب » قبل أن يتم طبعه ، وكنت أخذت نفسي في تقديم هذه الثروة الطائلة إلى القراء بكلمات لم أقل فيها: إن « شوقي » أمير الشعراء ، وإنما قلت « شاعر الشرق والإسلام » ،فلما التقيت به بعدئذ كانت هالة من البشر تغمر وجهه الضحوك المشرق، وهو يقول لي، « لكأنك يا أستاذ كنت تنطق بلسان الغيب،فإن قولك عني: إني « شاعر الاسلام » لأحب إلي من سنا البرق الرنان الذي يطلقه الصحفيون علي . . . ذلك أني أتمنى أن أكون شاعر الإسلام حقاً » ! !

كيف لقب بأمير الشعراء ؟

ومن حقنا ـ وقد انتهينا إلى تسجيل اللقب الذي كان يتمناه ، وهو « شاعر الإسلام » ـ أن نعرض لحادث تاريخي أتاح للناس أن يطلقوا عليه بعده لقب « أمير الشعراء »: فقد كان الفقيد ينشر بعض قصائده في « الأهرام » حيناً، وفي « المؤيد » حيناً آخر.

وكان القائمون بأمر هاتين الصحيفتين يقدمون قصائده، تارة بأنها من نظم الشاعر المجيد أحمد شوقي ، وتارة أخرى يقولون عنه : إنه الشاعر المبدع ... وهكذا كانوا يطلقون عليه كل

يوم لقباً جديداً . . . إلى أن أرسل إحدى قصائده إلى « المؤيد » ذات يوم . . وكان مجلس المرحوم الشيخ على يوسف عامراً بالصفوة الصالحة من خيرة الأدباء والمتأدبين . . فأشركهم الشيخ معه فى التفكير عن لقب « واحد » يجعلونه علماً على هذا الشاعر الفذ . . فانتهى بهم التفكير إلى تسجيل هذا اللقب « أمير الشعراء »، فرضيه الشيخ، واطمأنت إليه الصحف، وعرف به شوقى حتى اليوم .

أول قصائده

وما دمنا فى مكان المؤرخ للحوادث النادرة فى حياة الفقيد ، فإن علينا أن نسجل على هذه الصفحات ، أول قصيدة فتح بها عهد نظمه للشعر ، وهى القصيدة التى رفعها إلى السلطان عبد الحميد . . . والتى يقول فيها :

سلام الله لا أرضى سلامى ... فكل تحية دون المقام
وعين من رسول الله ترعى ... وتحرس حامل الأمر الجسام
تقلب فى ليال من خطوب ... تركن المسلمين بلا سلام
ومن عجب قيامك فى الليالى ... وأنت الشمس فى نظر الأنام
أحب خليفة الرحمن جهدى ... وحسب الله فى حسب الامام
وأجعل عصره عنوان شعرى ... وحسن العقد يظهر فى النظام

وإن هذه الباكورة لكفيلة أن تفصح لك عن سليقة الشعر فيه إفصاحاً .

غريزة الشعر

كان الشعر عند شوقى كل شىء ، فإن الذى أتاحت له الأيام أن يجلس إليه ، كان يعجب لهذا الرجل الصامت الذى لا يتكلم إلا بمقدار ، والذى لا يطيق فيه غريزة الشيجرة المثمرة . . . كيف به ينظم القصيدة التى تبلغ من أربعين بيتا او من خمسين أو من مائة بيت فى ليلة واحدة ؟ ولكن! لقد صدق «مطران» فى قوله عنه : ينظم الشعر فى الطريق ، وفى السيارة ، وفى مركبة السكة الحديد ، وفى كل مكان : وهذا ما يدعونا إلى القول بأن الشعر لم يكن من حظه أن يتوجه وحيه إلى قلم «شوقى» فى عسر وضيق، وإنما كان قلم «شوقى» قادرا على أن يسترسل فى كل وقت ، ذلك لأن الشعر كان إحدى غرائزه التى نبتت معه ، وتأصلت فى ذاته .

الوفاء

نظم شوقى عشرات من قصائد المدح والرثاء ، فقال شانئوه : إنه لا يمدح إلا عن هوى، ولا يرثى إلا عن تصنع ، ولعمرى لو علموا أن الفقيد كان من أولئك الذين طبعت نفوسهم على الوفاء كل الوفاء ، لأدركوا - فى غير لبس - أنه لم يكن يمدح إلا عن وحى نفسه ، ولم يكن يرثى

أحداً إلا بعد أن يحز الحزن فى نفسه ، وإلا بعد أن تباعده الدموع، فلا يرى ـ خلاصاً من إسار أحزانه الصامتة ـ إلا أن يسكب دموعه المدرارة فى إحدى قصائده الملتهبة الفوارة .

وليس كثيراً على «شوقى» أن يقول مئات القصائد فى الرثاء والمديح ، فانه لم يكن شاعراً مغموراً . ولا رجلا مغموراً ، وإنما كان أكبر شاعر ، وكان إلى ميزته هذه رجلا من رجالات المجتمع البارزين ، ورجالات المجتمع وحدهم يعرفون قيمة الصداقة ، وقيمة الوفاء للأصدقاء . ولو أن «شوقى» كان يتصنع المديح والرثاء ، ما كان من شأنه أن يمدح إلا رجلا من رجالات الطلعة ، ولا يرثى إلا رجلا من خيرة البارزين ، ولكنه كان يقرظ رجالا لم يتدرجوا إلى السفح ، ويرثى رجالا لم تعلن الصحف نعيهم إلا بالأجر المحتوم . . . . ! !

من رجالات الخير

وليس إلا حقاً من حقوق الفقيد أن يذاع عنه بعد نعيه أنه رجل من رجال الخير . . . ذهب إليه أحد شعرائنا المغمورين وملء يده بطاقة يقول فيها :

هل أنت منقذ من ضاقت به الحال ومن تيتم ، لا أهل ولا مال ؟

فكان جواب «شوقى» عن هذا البيت رسالة من قلمه كل مافيها قوله: «نعم منقذه» ، والحق أنه أنقذ الشاعر المغمور ، ولكنه لم يجعل إنقاذه له فى تلك المرة آخر حلقة فى سلسلة الانقاذ ، وإنما شجعه على السعى إليه كلما هبت على حياته ريح عاصف . . . ! !

لقد كان «شوقى» أحذق النابهين بين رجالات المال ، ولكنه لم يسايرهم فى أسلوبهم الذى يحتوى على كل ما فى البخل من معان ، لأنه كان يؤمن أن المال فى يده شطران : شطر لبيته ، وشطر آخر لأولئك الذين يكونون معه أسرة المتاديين .

بحائر بعير الغموض

فى شعر «شوقى» ميزة قلما تقع عليها فى غير شعره ، فانك متى طلعت على بيت غامض فى إحدى القصائد ، وأردت التنقيب عن معناه ، كنت كمن يجول فى صحراء لا أثر فيها للظل ، لأن المعنى ـ كما يقولون ـ لا يترك «بطن الشاعر» ، أو إذا ما لقيت أحد الشعراء وسألته عن الدافع الذى حدا به إلى الغموض فى إحدى قصائده ، أجابك بقوله: إن هذا وحى الخيال ، وليس لى من عمل فيه إلا أنى كتبته . . ! ! ولكن «شوقى» لم يكن من هذا الطراز ، وإنما كانت كل قصائده من نوع مفهوم ، تستطيع أن تمسك معانيها قبل أن تمر على ألفاظها . . وليس هذا إلا أثر من آثار دراساته العميقة التى تقب بها فى كل فن ، وأتى فيها على كل مستور خبىء . . . وإن الذى يدرس موضوعه كفيل أن يؤديه أداء لا لبس فيه ولا غموض ، وما «شوقى» إلا الدماغ الذى وعى كل ما فى الحياة من فنون .

والواقع أن «شوقى» قد تناول فى دراساته فنون الحياة كلها ، وأتاح لذهنه أن يطويها بين جنباته حتى ينثرها ملفوفة فى رأيه حين يحين أوانها ، أو تأتى مناسبة القول فيها .

وأذكر تزكية لهذا الرأى، أنى كنت فى مجلسه ذات يوم، فابتدرنى بقوله: « أى سر حدا بك إلى دراسة التصوف وما تزال شاباً؟ » فأجبته: « إن الذى حدانى إلى ذلك إنما هو البحث وراء الحقيقة: وإنما هو العمل - فى ظل التمحيص - على تزييف النظريات التى حشرت فى تضاعيف التصوف حشراً » .... وكنت أزعم فى نفسى أن «شوقى» لم يدرس التصوف بعد . فقلت « . . ومع ذلك كله فانى أرى فى دراسة التصوف لذة روحية بالغة الأثر » . . فأدهشنى منه أن يقول : « ذلك حق ، فقد درست التصوف دراسة مستفيضة، وعرفت كل ما يتخذه المتصوفون لوصف حالاتهم من مصطلحات، وزدت على ذلك أن عارضت القصيدة التائية لابن الفارض ، وعارضت القصيدة الخمرية له أيضاً، ولم أنشرها بعد» .

ولو أنك توجهت إلى أحد شعرائنا بقولك: « هل درست التصوف؟» .. لكان كل جوابه: وماذا يجدى التصوف ، وأية علاقة له بالخيال . ؟ . . ولكن «شوقى» كان يرى من حقه أن يلم بكل شىء ، ليكون حديثه إلى الأجيال مفهوماً لا عناء فيه . . !

وإن «المعرفة» - التى تمنى جهدها باذاعة النظريات الجديدة فى الفلسفة والتصوف، والتى عرف الفقيد الكريم عنها هذه الغرة فاكثرها بطائفة من آثاره - لترجو أن يوفق الله ولديه الكريمين إلى العثور على هاتين القصيدتين حتى ينشرا على صفحاتها ، أو يذاعا بأى أسلوب من أساليب الاذاعة، ليطلع المتأدبون ورجال التصوف على أحدث القصائد الصوفية فى العصر الحديث .

هل كان يحب الحياة ؟

الذين ترجموا «لشوقى» يقولون عنه : إنه كان يحب الدنيا ويكره الموت ، ويقولون عنه كذلك: إنه لم يكن يستشعر الغبطة حين يفد عليه طارئ من مرض بسيط ، مخافة أن ينطلق به هذا الوافد المودع إلى الحياة الأخرى .

ولكن الذى يريد أن يقول الحق كل الحق عن «شوقى»، إنما يجب عليه أن يدحض هذه الفرية ، وأن يستنكرها استنكاراً ، لأن حب الدنيا لم يكن وقفاً عليه وحده ، وإنما هو غريزة من غرائز النفس التى تنشد البقاء دائماً، حتى تستوعب كل ما يجد فى الحياة من وجوه .

ولقد كان «شوقى» يحب الدنيا ، لا ليستمتع بما فيها من لهو ، وإنما ليتمكن من أداء رسالاته التى يجيش بها قلبه، وتختلج بها كل حاسة فيه .

ولو أنه كان يحب الدنيا للتمتع واللهو ، لأنفق كل حياته فى هذين الضربين ، وقد يسرت الأيام له أسباب الرفه، وملأت يده بالذهب، وحققت له - كل ما يحقق للرجل الذى يريد التمتع - وجوه أمانيه وضروب أحلامه .

ولكنه لم ينفق وقته ـ أو كثيراً من وقته ـ في غير القريض ، وفي غير البحث عن سر دفين من أسرار الحياة ليلقي عليه الشعاع ، ويسكب على قتامه الضوء .

مسرحيات...

وإنها لمعجزة كبرى أن يتمكن هذا الشيخ في تلك السن المتأخرة ، وبين أنياب المرض الذي انتابه في أعوامه الأخيرة . . . إنها لمعجزة كبرى أن يتمكن من أن يخرج في ثلاثة أعوام أربع مسرحيات كبيرة، لم يترك في قرضها زمامه لخياله، وإنما تركه ليد التاريخ الصادق توجه به إلى ما يجعل القريض الذي ينتجه درساً من دروس التاريخ النادرة .

ولقد جددت هذه المسرحيات في فكرة المسرحيين ، وهيأت لهم ألا يستوحوا الخيال وحده ، لأنه لا يستطيع أن يقف بالقصة على قدم ثابتة ، وأن يوفروا على تاجهم أسباب الصدق حتى تكون العبرة ـ من الأقصوصة ـ عبرة رائعة التأثير .

ولو أنه كان يعمد إلى خياله وحده ، أكان من شأنه أن ينتصر على النقاد الذين سلقوه في مسرحية «قمبيز» بألسنة حداد ؟ والذين قالوا عنه: إنه شوه التاريخ ليرضي هواه ..؟ لقد جابههم بالمصادر التي قرأها ، والتي استوحاها هذا المظهر الذي صور به شخصية «قمبيز» الجبار، فلم يملكوا أنفسهم من الصمت ، ولم يكن من شأنهم إلا أن يلقوا إلى الأرض السلاح ! !

ولقد فتح «شوقي» بهذه المسرحيات فتحاً جديداً لم يألفه الشعر من قبل ، فلم يكن الشعر من أسلحة الرواية ، ولكن «شوقي» قدر له أن يكون من أمضى أسلحتها وأقواها .

وكان من أثر هذا الفتح ـ في نفوس الشعراء المعاصرين ـ أن فريقاً منهم حاول اللحاق بالفقيد في هذا الميدان العسير ، فرأينا المرحوم الشيخ محمد عبد المطلب يضع رواية مسرحية عن «ليلى الأخيلية» ما تزال لدينا رهينة النشر ، ورأينا غيره يحاول وضع روايات من الشعر... على أن نتاج «شوقي» سيبقى إلى الأبد ، غاية لا يواتيها أحد .

وإذا كان «شوقي» قد جدد في المسرحيات ولها أخضع الشعر ، فانه ـ إلى ذلك ـ قد أرسل من سمائه السامية فيضاً من القول الرائع . . هو هذا الذي جدد به من أسلوب الأغاني تجديداً تسمع الأذن منه المعجب والمطرب .

* * *

وبعد ، فتلك عجالة لا خير فيها ، وسنتبعها بدراسة مستفيضة ، لمن يريد استيعاب «شوقي» في شيء من التبسط، ولكنا نذيع عجالتنا الآن وفاء له ، وتقديراً لآثاره ، وتنويهاً بفجيعة العروبة فيه!

عبد العزيز السيد صيولى